العلاقات المغربية المشرقية في كتب التراجم خلال القرنين 12/11 الهجريين و18/17 الميلاديين "كتب الإفراني أنموذجا"

الباحثة نبيلة همار
طالبة باحثة بسلك الدكتوراه (السنة الختامية)
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز بفاس
الأستاذ المشرف: عبد الهادي البياض
المغرب

ملخص

عرف تأليف كتب التراجم تطورا ملموسا مع توالي القرون، خاصة من الناحية المنهجية، أدى إلى تعدد المصنفات وكثرتها ضمن الفن الواحد وخاصة فن التراجم، حيث بدأت هذه المنهجية عبر كتب تعنى بتجميع تراجم الصحابة والمحدثين، وتطورت حركة التأليف في التراجم خلال القرون العشرة الأولى للهجرة تبعا لتنوع المعطيات الثقافية والمعرفية عبر العصور. فكان لكتب التراجم دور هام في الحصول على كم هائل من الأخبار والمعلومات المكتوبة والموثقة للتعرف على حيثيات وتفاصيل وحوادث ومواقع وأماكن وثقافة وأدوار اجتماعية ومعلومات عن إنجازات علمية وحضارية، عرفت بالأعلام المترجم لهم وبالعلاقات المغربية المشرقية، إذ بواسطتها يمكن الاطلاع على جميع العلاقات سواء الاجتماعية أو السياسية أو الانسانية بين المغرب والمشرق، خاصة وأن هذه التراجم شكلت تحديا كبيرا أثناء جمعها وصياغتها، إذ ليست بالهين لهؤلاء العلماء الأجلاء الذين وجدوا صعوبات في نقل كل ما يتعلق بالعالم المترجم له، أن يتغلبوا على بعض المعلومات الناقصة التي كان يستحيل عليهم إثباتها (**تاريخ الولادة، تاريخ الوفاة، الشيوخ الذين تتلمذ عليهم**،....)، ولكن العمل الجاد لابد أن يتمخض عن ظروف صعبة ويولد من رحم المعاناة، وبهذا برز لنا عمل العالم والفقيه والأديب محمد بن عبد الله بن الصغير الإفراني، ومن خلال مصنفاته تمكنا من التعرف على العلاقات المغربية المشرقية في هذه المرحلة التاريخية (ق 11- 12هـ/17- 18م)

Abstract

The compilation of biographical books has witnessed significant development over the centuries, especially methodologically, leading to a variety and abundance of works within the same art, particularly the art of biographies. This methodology began through books that focused on collecting biographies of the Companions and scholars, and the movement of biographical writing evolved during the first ten centuries of the Hijra due to the diversity of cultural and knowledge data across ages. Biographical books played a crucial role in obtaining a vast amount of written and documented news and information to understand details, incidents, locations, cultures, social roles, and information about scientific and civilizational achievements. They are known for the translated figures and Moroccan-Eastern relations, as they allow access to all types of relationships, whether social, political, or humanitarian, between Morocco and the East. These biographies posed a significant challenge during their collection and formulation, as they were not easy for these distinguished scholars who faced difficulties in transferring all aspects related to the translated figure, overcoming some missing information that they found impossible to prove (date of birth, date of death, teachers they studied under, etc.). However, diligent work must inevitably result from difficult circumstances and be born out of suffering. Thus, the work of the scholar, jurist, and writer Mohammed Ben Abdellah Ben Essaghir Al-Ifrani stands out to us through his works.We were able to identify the Moroccan relations with the East during this historical period (11th-12th century AH / 17th-18th century AD).

مقدمة

عرف المغرب علاقات وطيدة بالمشرق العربي، لم تنقطع يوما ما، حيث كان للجناحين قواسم مشتركة ذات بعد اقتصادي، واجتماعي، وسياسي، وثقافي، وعلمي، وفكري، إذ جمعت بينهما حضارات البحر الأبيض المتوسط المختلفة، فضلا عن حضارة الإسلام التي منذ أن أنار أرجاء الربوع المغربية والعلاقات العلمية والروحية بين المغرب والمشرق تتوطد وتتقوى، نظرا للإيمان الراسخ والاعتقاد الجازم بضرورة التعاون لما تمليه عليهما رابطة الدين.

ولعل أبلغ هذه الروابط توطدت بفعل الرحلة، إذ كان المغاربة يتوجهون إلى المشرق وخاصة إلى الحجاز لأداء مناسك الحج وطلب العلم، وبذلك يتم تبادل مختلف ألوان العلوم والفنون وتجديد أواصر المحبة والوحدة الروحية والفكرية بين العلماء المغاربة والمشارقة، فتتوج بإجازات وإفادات لم تقتصر على العلماء فقط، بل شملت أيضا الملوك والسلاطين، خاصة بين القرنين 11- 12هـ/ 17-18م، رغبة في توثيق الأسانيد التي كان العلماء يتواردون من المغرب بالآلاف كل عام على مختلف أقطار المشرق فيصلون أسانيد المغرب بأسانيد المشرق، وهذا ما سمي بعلم الإسناد الذي اختصت به الأمة الإسلامية عن مختلف الأمم.

بالإضافة إلى علم مصطلح الحديث، وعلم تراجم الرجال الذي يسرد سيرة حياة بعض الأعلام الذين وضعوا بصماتهم في المجتمع، علم صار أحد فروع علم التاريخ.

إن اهتمامي الشديد بالتنقيب عن هذه الروابط والعلاقات ما هو إلا سبيل لتحقيق الغاية من البحث بالكشف والبيان عن أهمية كتب التراجم في التعريف بالعلاقات المغربية المشرقية، وهو أمر جاء تصريفه من خلال اختيار كتب الإفراني التي اعتبرتها أنموذجا من خلال استخراج قضايا من هذه الكتب بغية معالجتها والنظر إليها من مختلف مستويات النظر للوصول إلى لب القضية ألا وهو التعريف بالعلاقات المغربية المشرقية من خلال كتب التراجم فماهي كتب التراجم؟ وماأنواعها؟ ومن هو الإفراني؟ وماهي مصنفاته؟ وما دورها في التعريف بالعلاقات المغربية المشرقية؟

أولا: التعريف بكتب التراجم:

التراجم لغة هي جمع ترجمة والترجمة مصدر ترجم بمعنى فسر وبين الكلام[1] ، واصطلاحا هي الإفصاح عن هوية الشخص وسيرته[2]، وكتب التراجم هي أعمال مرجعية تعرف حياة مجموعة من الأفراد ويتم ترتيبها بطريقة معينة وتتناول سيرة وحياة الأعلام من الناس عبر العصور المختلفة، وقد شكلت السيرة النبوية الشريفة خلال القرنين الأول والثاني للهجرة مرجعية معرفية تتصل بحياة الرسول (ص) وصحابته، وتم اعتمادها من قبل كتب الترجمة لاحقا مع مراعاة التسلسل الزمني للأحداث فكانت تأسيسا للتأليف في علوم التاريخ والتراجم والأنساب وغيرها، فكتب التراجم ليست كتب تاريخ لأنها تعتبر بعد استوائها صنفا مركزيا قائما بذاته، فهو صنف مصدري من رحم الأنساب خرج، وفي حضن الحديث نشأ وفي رعاية التاريخ ترعرع، الأدب ضمنه والجغرافيا وطنته وباقي العلوم حازته وأفادته[3].

والمؤرخ يستفيد من هذا الصنف من الكتب إذ يقدم له معلومات ومعطيات متنوعة اجتماعية وثقافية وسياسية تجعله ينفتح على قضايا مختلفة، فينفتح بدوره على الإطار السوسيوتاريخي وكذا على مجموعة من المقاربات التي تساعده في دراسة هذه القضايا كالمقاربة الأنوماستية وكذا البيوغرافية والبروسوبوغرافية خاصة القضايا التي استبعدت أو أهملت من قبل المؤرخين السابقين، وتعتبر كتب التراجم صلة وصل بين السابق واللاحق إذ يمسك المؤرخ بطرف الخيط المعتمد من مؤرخ سبقه أرخ لرجال زمانه ثم يصل هذا الإرث بتراجم رجال عصره وهكذا يمر الخيط على الأزمان فينتظم الرجال في سلك عقده، وهذه ظاهرة مشهورة في الغرب الإسلامي حيث يكمل اللاحق من المؤرخين عمل السابق[4].

وبذلك فكتب التراجم تمد المؤرخين برؤى أخرى في الكتابة عن التاريخ وبعض أحداثه بصيغ أخرى، كما تسمح بإنجاز دراسات تراكمية تعطي للباحثين فرصا أفضل للحصول على بيانات من شأنها أن تغني الكتابة التاريخية[5]، كما اهتمت بكل من اعتنى بالعلم قصر شأنه أو كبر ويظل التعريف فيها بالفرد مجرد وسيلة تحقق غاية أكبر تتجاوز به الجزئي والخاص إلى الشمولي والعام[6]، ولابد من مراعاة معنيين عند تعرض الباحث لمفهوم التراجم[7]، أولهما حينما يكون المعنى خاصا ويقصد به كتب السير والتراجم فقط، وثانيهما حينما يكون المعنى عاما والقصد به ما كتب تعريفا بالرجال[8]،

فمن هو الإفراني وماهي مصنفاته؟

ثانيا: التعريف بالإفراني

أبو عبد الله محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني، ولد بمراكش أواخر القرن 11هـ، ذلك بأن تاريخ ولادته ظل متباينا، فقد ذهب صاحب الإعلام عباس المراكشي وابن المؤقت في كتابه السعادة الأبدية أن ولادته كانت قرب الثمانين بعد الألف، وهو التاريخ الذي ذهب إليه ليفي بروفنصال حين رجح أن ولادته كانت حوالي 1080هـ (1670/1669م).

نشأ محمد بن الحاج الإفراني في بيت علم وصلاح، تلقى تعليمه الأول بمراكش مسقط رأسه، على يد الفقيه أبي العباس أحمد بن علي المواسي وإبراهيم العطار وغيرهم.

ومن مراكش رحل الى فاس ليتم دراسته بجامع القرويين فأخذ بها من جماعة من الائمة كالعامل المشارك المحصل الصالح سيدي أحمد عبد الحسن الحلبي رحمه الله ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي وهما عمدته، ومحمد بن أحمد المسناوي والعربي بن أحمد بردة قاضي القضاة بفاس وسعيد بن أبي القاسم العميري قاضي مكناس والحسن بن رحال المعداني قاضي مكناس وغيرهم.

نال حظوة عظيمة عند هؤلاء الأساتذة الذين دعموه ببلاد الغربة، وفي سنة 1130 هـ/ 1717م، عاد إلى مراكش ليشغل منصب التدريس والتصنيف خاصة تفسير القرآن وصحيح البخاري[9].

أ–عصره:

ولد الإفراني رحمه الله في أواخر القرن الحادي عشر الهجري وامتد عمره إلى النصف الثاني من القرن الثاني عشر، عصر الدولة العلوية الشريفة، عاش فيها مرحلتين هامتين من قوتها وضعفها (**العصر الإسماعيلي عصر الاستقرار السياسي، ومرحلة استبداد الجيش**) فهو لم يقدم للتاريخ السياسي الذي عاصره شخصيا إلا قليلا، مما كان بإمكانه أن يقدمه، ففترة الحكم العلوي لم تشغل إلا حيزا محدودا من "**نزهة الحادي**" الذي يظل مقابل ذلك أحد المصادر ذات القيمة عن عهد السعديين، بالإضافة إلى معلوماته عن نضال المجاهد العياشي والحركة الدلائية وحركة الجهاد البحري[10].

ومن العلوم التي درست في عهد الإفراني: التفسير والحديث والسيرة النبوية والتوحيد والفقه والأصول والنحو والبلاغة والمنطق والتصوف والعروض[11].

وتصدر الإفراني التدريس لكنه وجد خيبة أمل تجاه فقهاء عصره، إذ ظن أنه بعودته إلى مسقط رأسه مراكش سيحظى باستقبال حار، إلا أنه ذكر صاحب رحلة الوافد الذي رافقه في مدرسة مولاي رشيد بفاس أنه تصدر لقراءة التفسير وصحيح الإمام البخاري، واجتمع عليه طلبة الحمراء بكثرة الجدال والبحث في مجلس إقرائه وتدريسه ورموه بالزندقة والجهل بأحكامها ورفعوا أمره للقاضي بوعبدلي سيدي محمد بن أحمد وباشا مراكش، فانقسم طلبة المدينة إلى قسمين قسم يحبه وقسم يبغضه، وتحمل هذه الحادثة دلالات كثيرة ،كما قال الدكتور محمد العمري، أهمها جمود الفكر الديني، وسيطرة الفقهاء المتزمتين في مراكش، كما أشار في كتابه "نزهة الحادي" إلى ضائقة مالية، حتى أن دائنيه باعوا مكتبته الشخصية وقد عبر عن غيضه في رسالة وجهها إلى رئيس الزاوية الشرقاوية

بأبي الجعد الشيخ محمد الصالح بن محمد المعطي الشرقاوي الذي وجد فيه المنقذ والمساعد في وقت سدت في وجهه الأبواب، ففتح أمامه باب الأمل وأعاد إلى نفسه الطمأنينة والاستقرار[12].

الثابت عن مترجمي الإفراني أن رحلته من مسقط رأسه مراكش لم تكن الى ربوع آخر غير فاس التي ارتحل إليها لطلب العلم، وبقي فيها الى عام(1130هـ/1718م) ليرجع الى موضعه بمراكش تصدر حينها لقراءة التفسير وصحيح البخاري[13].

قيلت في حق الإفراني العديد من الشهادات[14]، منها التي قالها محمد بن ابراهيم الزرهوني: كان رحمه الله فقيه عصره، وفقيه دهره، كان ذا حفظ وإتقان، فصيحا وخطيبا تضرب به الأمثال وقد أبهر أقرانه من نباهته حتى وقعت المضاربة بمجلسه بين الطلبة ... دمث الأخلاق خفيف الروح، مشتغلا بالتقييد مستغرق الأوقات في ذلك.

وقال محمد المكي بن موسى الناصري: الفقيه الأجل والعلامة الأمثل حافظ العصر ومحدثه.

وقال المختار السوسي: كان علامة مراكش، مشاركا في الأمور كلها وقد رفع راية الأدب وناهيك بكتابه المسلك السهل على توشيح ابن سهل وتصدر للتدريس في العلوم خصوصا التفسير فظهر منه في الحفظ آيات باهرة.

بأحكامها ورفعوا أمره للقاضي بوعبدلي سيدي محمد بن أحمد وباشا مراكش، فانقسم طلبة المدينة إلى قسمين قسم يحبه وقسم يبغضه، وتحمل هذه الحادثة دلالات كثيرة ،كما قال الدكتور محمد العمري، أهمها جمود الفكر الديني، وسيطرة الفقهاء المتزمتين في مراكش، كما أشار في كتابه "نزهة الحادي" إلى ضائقة مالية، حتى أن دائنيه باعوا مكتبته الشخصية وقد عبر عن غيضه في رسالة وجهها إلى رئيس الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد الشيخ محمد الصالح بن محمد المعطي الشرقاوي الذي وجد فيه المنقذ والمساعد في وقت سدت في وجهه الأبواب، ففتح أمامه باب الأمل وأعاد إلى نفسه الطمأنينة والاستقرار[15].

أما الغريب في شخصية هذا الرجل مهما كتب عنه المؤرخون، ورسمه المترجمون إلا أن حياته اكتنفها الغموض، فكل ما سجل عنه لا يعني له بمقدور مقارنة مع علماء جيله، ومقارنة بعالم مؤرخ وأديب ومفسر ومحدث مثل الإفراني.

وفاته[16]: إذا كان تاريخ ولادة الإفراني لم يتم ضبطه، فكذلك بالنسبة لتاريخ وفاته، والغريب أنه لم يكن الخلاف في سنة أو سنتين، بل تعدى ذلك الى ثمانية عشر سنة، من سنة (1138هـ/1725م) الى سنة (1156هـ/1743م). فالجبروتي أرخ تاريخ وفاته بشهر رجب سنة (1138هـ/ 1725م) في تاريخ عجائب الأثار ص 95 رقم54.

وفي السعادة الأبدية لابن مؤقت، السعادة الأبدية 200/1والاعلام لعباس المراكشي 51/6 ومحمد مخلوف صاحب شجرة النور الزكية 483/1 رقم 1330 وعبد الله كنون في النبوغ ص 288، أنه توفي في حدود الأربعين ومائة وألف (1140هـ /1727م).

وأبو عبد الله المكي الناصري صاحب الرياحين الوردية قال: إنه لقيه بمراكش سنة (1149هـ/1736م) وصلى الجمعة بجامع علي بن يوسف، والإمام به السيد الصغير المذكور خطب خطبة بليغة لو سمعها حجر لانفلق أو أصم لنطق وذكر أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري في خاتمة التقاط الدرر أنه توفي في حدود (1150هـ/1737م).

ونشر أحد المراكشيين في جريدة السعادة أنه رأى كناشة بخزانة جامع ابن يوسف لإعارة كتبها فيه أنه في اخر سنة (1152هـ/1739م) استعار الإفراني بنفسه كتابا من الخزانة المذكورة، وفي أوائل عام أربعة وخمسين ومائة وألف (1154هـ/1741م) رد الكتاب إليها بعض ورثته، فعلى هذا تكون وفاته فيما بين ذلك. في حين رجح صاحب كتاب الزاوية الشرقاوية أحمد بوكاري وفاته عام (1153هـ /1740م).

رابعا: مصنفات الإفراني

لقد خط الإفراني العديد من المصنفات[17]، حظيت أغلبها بالقبول، وارتاحت لمعانيها العقول، فخلف مؤلفات تاريخية وأدبية مهمة، زيادة على بعض الكتب الدينية وإن كانت قليلة مقارنة بصنف الأدب والتاريخ، منها:

- ✓ المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل، مطبوع بتحقيق محمد العمري، وهو من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.
- ✓ صفوة من انتشر في أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، طبع على الحجر قديما، وأعيد نشره مؤخرا بالدار البيضاء باعتماد عبد المجيد خيالي عن مركز التراث الثقافي المغربي.
- ✓ فتح المغيث بحكم اللحن في الحديث، طبع باعتناء عبد المجيد خيالي، عن دار الكتب العلمية ببيروت.
- ✓ روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف، طبع بتحقيق عبد الوهاب بن منصور، وهو من منشورات المطبعة الملكية بالرباط.
- ✓ درر الحجال في مناقب سبعة رجال، أو زبدة الأوطاب في مناقب الأقطاب، طبع بتحقيق حسن جلاب.
- ✓ المغرب في أخبار ملوك المغرب، ذكره ابن سودة في دليل مؤرخ المغرب.
- ✓ نزهة الحادي بأخبار ملوك الحادي، مطبوع بتحقيق عبد اللطيف الشادلي، عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء.
- ✓ طلعة المشتري في توبة الزمخشري، ذكره ليفي بروفنصال في كتابه مؤرخو الشرفاء، وذكره العباس بن إبراهيم المراكشي في الأعلام.
- ✓ الوشي العبقري في مساورة الإمام المقري، نشر بتقديم وتحقيق عبد الله نجمي، انظر كتاب: وقفات في تاريخ المغرب، دراسات مهداة للأستاذ إبراهيم بوطالب، منشورات ص583-602.
- ✓ سمط العقائق في الفرق بين المواهي والحقائق، نشر بتقديم وتحقيق عبد الله نجمي، انظر كتاب التاريخ والفقه، أعمال مهداة إلى المرحوم محمد المنوني ص209-228.
- ✓ ياقوتة البيان أرجوزة في الاستعارة، من نظمه، ثم شرحها والشرح في نسختين: الأولى بخزانة علال الفاسي رقم 707 والثانية بالخزانة الملكية رقم 4294.
- ✓ الإفادات والإنشادات وذكره في كتاب الصفوة ص294، قال ابن سودة في كتابه الدليل: نسبها له أبو الربيع سليمان الحوات لما ترجم له في بعض مقيداته وقال في حقه هو تأليف لا كفاية له في الحسن 2/ 3440.

خامسا: الإفراني والتعريف بالعلاقات المغربية المشرقية

أ-الرحلة والعلاقات المغربية المشرقية:

عرف المغرب علاقات وصلات دينية، ثقافية، اقتصادية، اجتماعية وسياسية وطيدة بالدولة العثمانية عموما، وولاياتها المشرقية خصوصا، بحكم احتضانها للحجاز الذي كان قبلة للمغاربة من أجل أداء فريضة الحج وطلب العلم، فكان لرحلة المغاربة نحو المشرق الأثر الكبير في توطيد هذه العلاقات، حيث أشارت كتب الإفراني إلى العديد من هؤلاء الأعلام الذين رحلوا، وهي بذلك كغيرها من كتب التراجم القادرة على بيان وجه من وجوه العلاقات المغربية المشرقية. فما أهمية كتب تراجم الإفراني في التعريف بهذه العلاقات من خلال قضية الرحلة؟

الرحلة هي حركة انتقال شخص أو أشخاص من مكان لآخر، ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس (ت 395هـ/ 1005م)، يقال رحل، رحلة والرحلة: الارتحال، ورحله إذا أظعنه من مكانه[18]، ومعاجم اللغة تجمع كلها على أن الرحلة هي الانتقال من مكان لآخر، وبهذا فالمغاربة منذ القديم أنجزوا رحلات لا تعد ولا تحصى.

أما اصطلاحا، فالرحلة كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وما عاينه مازجا بذلك بين مشاهداته وانطباعاته الذاتية حول المرتحل إليهم. إلا أن هناك رحلات عديدة لم تدون، لكن أُخبر عن القيام بها من خلال تراجم أصحابها.

وتزخر الرحلات بالعديد من المعارف المتنوعة بتنوع أهدافها ومقاصدها، وتعددت بتعدد أسبابها، وهي من دعائم الاتصال والتواصل بين المشرق والمغرب، حيث كان حج بيت الله الحرام من أهم دوافعها ومن أعظم البواعث لسفر المغاربة نحو الحجاز لأداء هذه الفريضة العظيمة ولطلب العلم، قال ابن خلدون في ذلك:"**إن الرحلة في طلب العلم لاكتساب الفوائد ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، فالرحلة لابد منها في طلب العلم والفوائد، والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال**"[19]. وهذا ما أكده الإفراني في تراجمه للعديد من الأعلام خلال القرنين الحادي عشر والثاني يعشر الهجريين الذين رحلوا إلى المشرق بغية التلمذة والأخذ عن الشيوخ والعلماء، مثل "**الأستاذ الفقيه أبي العباس أحمد بن حميدة**" (ت 1001هـ/1592م)، و"**الإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن أبي المحاسن يوسف الفاسي**" (ت 1021هـ/1612م)[20]، و"**الشيخ العارف بالله أبي العباس أحمد بن محمد الشهير بأذفال الدرعي**" (ت 1023هـ/1614م)[21]، و"**الفقيه الأستاذ أبي العباس أحمد بن يحي السوسي النترتي**" (ت 1030هـ/1621م)[22] وغيرهم، حيث مثل المشرق عندهم منبع العلم، فمنه شع قبس العلم والمعرفة. ولهذا كان ولابد أن يكون الحجاز منتهى سفرهم، على حد قول ابن خلدون.

ذلك بأن أغلب تراجم الإفراني تشير إلى هذه الرحلات نظرا لاستقطاب الحجاز لعدد كبير من المغاربة الذين يستهويهم ويجذبهم المكان نحوه، فكان منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم[23].

ومن المشارقة الذين ترجم لهم الإفراني وكان لهم دور مهم في التدريس بجامع الأزهر هناك "**الإمام العالم العامل أبو النجا سيدي سالم بن محمد السمنهوري**"[24] (ت 1016هـ/1607م)، وكان من هؤلاء الأعلام من لا يكتفي بحجة واحدة وإنما يحج عدة مرات حيث بمجرد ما يصل المترجم له إلى بلده حتى يسرع في الرجوع إلى الحجاز، مثل "**الشيخ الصادق الأحوال أبي العباس أحمد بن محمد مجيب**"[25]، ومنهم من كان يطيل المكوث هناك لفترة طويلة بمكة أو بالمدينة أو بهما معا حتى يشبع رغبته ويروي ضمأه[26]، حتى إن منهم من جاور مثل "**الشيخ الصالح ذو السر الواضح أبي العباس سيدي أحمد بن علي بن محمد بن مسعود بن علي بن صالح المداسي**" و"**الإمام الرحالة أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي**" وغيرهما ممن جاوروا بتلك الأراضي المقدسة[27]، وممن استقر بتلك البلاد إلى أن توفي ودفن بأراضيها نجد "**الشيخ الإمام أبا عبد الله محمد بن أبي بكر الونكري** "(ت1002هـ/1589م)[28].

والواضح أن الرحلة بالنسبة للإفراني كانت تعني طلب العلم الذي يغلب عليه الطابع الديني والصوفي، كما دلت على ذلك العديد من التراجم التي أوردها الإفراني، مثل "**الإمام العلامة أبي محمد عبد الواحد**" (ت 1040هـ/1630م)[29] و"**الشيخ العالم الصوفي أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي**"

(ت 1134هـ/1722م)، وهؤلاء وغيرهم كانت الوجهة عندهم في الغالب خلال القرنين (11- 12هـ/17-18م) إلى المشرق بحكم الاعتقاد السائد آنذاك، وهو أن الشخصية العلمية المغربية لا تكتمل معارفها وعلمها إلا بالأخذ عن المشارقة، فكانت الرحلات المغربية إلى المشرق في كتب تراجم الإفراني أكثر بكثير من الرحلات المشرقية إلى المغرب، حيث لا تكاد تخلو أي ترجمة من الإشارة إلى أن صاحبها قد حج أو رحل إلى المشرق من أجل زيارة الديار المقدسة والأخذ عن الشيوخ والعلماء هناك، لأن "**أهل المشرق**

على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل في سائر الصنائع حتى إنه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا بفطرتهم الأولى"[30].

وذكر الإفراني في تراجمه أوائل من رحلوا إلى المشرق، من مثيل "**العلامة محمد بن أبي بكر الدلائي**" و"**أبي سالم العياشي**" و"**أحمد المقري**"، بحيث تعرفوا على الحياة العلمية والفكرية بالمشرق واتصلوا بعلمائها وفقهائها، ودرسوا معهم مختلف القضايا المعرفية، وألفوا تآليف عديدة في ذلك، فألف أبو سالم العياشي رحلته المسماة بـ "**ماء الموائد**"[31]، وأحمد بن محمد المقري "**إضاءة الدجنة بعقائد أهل السنة**" درسها بمصر والشام والحجاز، وكتبت منها أكثر من ألفي نسخة، كتب بخطه على أكثرها[32]، وبذلك كان الحج يسمح بكثير من الاتصالات الفكرية بين العلماء المغاربة والمشارقة، فتتوج بإجازات في مختلف الفنون والعلوم والآداب، إجازات يتبادلها العلماء فيما بينهم، فنجد علماء مشارقة يجيزون علماء مغاربة والعكس صحيح. وهكذا يعود المغاربة من المشرق حاملين إجازاتهم وصورة صادقة عن الدين الإسلامي الحنيف مما تلقوه من علماء الحرمين الشريفين، ويتم أيضا تبادل التصانيف العلمية والأدبية بين الجانبين[33]، لأن مكة كانت ولا تزال نقطة التقاء ومركز تجمع المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية، ولهذا كانت من أقوى مراكز نشر الثقافة الإسلامية والتواصل العلمي والثقافي بين تلك الأقطار في الشرق والغرب.

إلا أن أخذ العلم هذا لم يقتصر على العلماء فقط، وإنما شمل السلاطين أيضا، حيث ذكر الإفراني في "**نزهة الحادي**" أن حب السلطان المنصور الذهبي للعلم لا ينفصل عن حبه للكتب، حيث حرص على بناء خزانة كتب ثرية لم يقف عن تنميتها طوال فترة حكمه، ولهذا الغرض كلف عدة مبعوثين بأن يجوبوا الدولة العثمانية لشراء الكتب اللازمة وشجع علماء عصره وأدباءه على أن يرسلوا إليه مصنفاتهم نظير مكافآت مجزية[34]. كما كان يهتم ويعتني بالعلماء المغاربة بالمشرق ويقدم لهم المساعدة، فهذا "**الإمام محمد بن القاضي بن أبي العافية**" لما وقع في الأسر من قبل العدو، فداه المنصور بمال جزيل، وهذا يدل على قيمة وفضل العلماء لدى السلطان.

وكان المنصور على دراية تامة بأن العلم وخاصة الديني منه يمكن أن يكون أساسا هاما للشرعنة، لذلك قام باستمالة العلماء المبرزين في المغرب وداخل الدولة العثمانية، فالعلم الديني كان أحد الشروط الأساسية لتولي الخلافة[35] إلى جانب النسب الشريف، فحسب ما ذكره الإفراني في "**نزهة الحادي**" فإن الأشراف الزيدانيين يعود أصلهم إلى قرية ينبع بالحجاز، أما استقرارهم بالمغرب فيعود إلى القرن(7هـ/ 14م) تقريبا، بعدما قبل زيدان بن أحمد أحد أشراف ينبع عرض الحجاج المغاربة بالمجيء معهم إلى المغرب للتبرك به[36]، فنتج عن ذلك إحداث علاقات اجتماعية بين المغاربة والمشارقة، فاستمرت إلى عهد الشرفاء السجلماسيين الذين انتسبوا أيضا إلى المشرق، بدخول جدهم المولى الحسن الداخل صحبة ركب الحاج المغربي، بعد إصرار أمير الركب أبي إبراهيم الذي زوجه ابنته بعد الوصول إلى سجلماسة، وهناك حديث مروي في ذلك أتى به الإفراني في دخول الحسن إلى المغرب وإيواء أهل سجلماسة له وإكبابهم عليه تصديقا للحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في (الجمان)، "**يروى أن فاطمة رضي الله عنها أرسلت جارية إلى السوق وهي تحمل صدقة فقالت لها من قبلها ايتيني به، فمضت الجارية إلى السوق وقالت: من يقبل صدقة مولاتي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وقال أنا موضع صدقة آل البيت، فأعطته الصدقة وقالت له: أجب بنت رسول الله (ص)، فقال: نعم، فلما بلغ الباب سألته من أنت؟ فقال لها أنا رجل مغربي، فقالت من أي أهل المغرب؟ فقال: من البربر، فبكت مولاتنا فاطمة وقالت: قال لي والدي رسول الله (ص) لكل نبي حواريون، وحواريو ذريتي البربر، يا فاطمة سيقتل الحسن والحسين ويفر أولادهما إلى المغرب، فلا يأويهم إلا البربر فيا شؤم من فعل بهم ذلك، وطوبى لمن أكرمهم وأعزهم**".

وبذلك توطدت العلاقات المغربية المشرقية، ففي عهد المولى الرشيد، حينما استقام له الملك وساعده الدهر واستقر بفاس الجديد، كان محبا للعلماء والصلحاء، رحل إليه الناس من المشرق وقصدوه[37]. أما بالنسبة للمولى إسماعيل فقد أذن لأخيه الحران بالنقلة إلى الحجاز بعد العفو عنه، فرحل صحبة خدمه وحشمه وتوفي هناك[38].

ولم تكن الرحلة دائما للحصول على العلم والمعرفة، وجلب الكتب، ولقاء العلماء ومجالستهم، والحصول على الإجازات، وبناء الشخصية العلمية، بل كانت لها أهداف أخرى تمثلت في الجانب السياسي، وهذا ما لم يغفله الإفراني في تراجمه، إذ ذكر سفارة "العلامة أبو حسن علي بن محمد بن علي التمكروتي الذي أرسله السلطان أحمد المنصور الذهبي بهدية إلى سلطان الدولة العثمانية صحبة الفقيه والكاتب عبد الله بن عمر بن علي الفشتالي، فألف بذلك صاحب الترجمة كتابه "**النفحة المسكية في السفارة التركية**" الذي كان مرجعا للإفراني، انتقى من فوائده ما ضمنه في كتابه "**النزهة**"[39].

كما جمع المنصور بين النظام المغربي والنظام التركي في تنظيم الجيش فقال الفشتالي في ذلك: "**وهذا مما زادت به دولته على سائر الدول، فإذا خرج في يوم عيد أو ملاقاة أو لتهنئة خرجوا مترتبين هكذا، يتقدم أولا جيش السوس، ثم يردفه جيش شراقة، ثم يردفهما العسكران، عسكر الموالي العلوج وعسكر الأندلس**".

وفي روضة التعريف أشار الإفراني إلى علاقة الملوك المغاربة بالسلاطين العثمانيين حيث قال: "**واعلم أن بعض الأغمار الذين قطعوا نفائس الأعمار يعتقدون أن ملوك المغرب لا تنعقد لهم ولاية مع ملوك المشرق، وذلك غلط واضح، لأن بلاد المغرب قطر مستقل بنفسه، وصقع منفرد برأسه، يحتاج إلى أمير يسوسه وحده، ولا يحسن أن يكون أميره في المشرق لتعلق كثير من الأمور الشرعية بالسلطان الأعظم لا ينوب عنه فيها خليفة ولا يقوم مقامه وزير**"[40].

من خلال ما ذكر نجد أن الرحلة كان لها دور فعال في إحداث وتوطيد العلاقات المغربية المشرقية، وبيان طبيعة الصلات القائمة بينهما، إذ كان المغاربة يقصدون الحجاز ليس للحج فقط وإنما لطلب العلم أيضا، ومجالسة العلماء والأخذ عنهم، والعودة إلى المغرب بإجازات في مختلف العلوم، كما أجاز العلماء المغاربة أيضا علماء مشارقة مما أثبت عكس الفكرة التي كانت سائدة آنذاك، بأن المشرق هو منبع العلم وكان للإفراني من خلال مصنفاته دور كبير بالتعريف بالعلاقات المغربية المشرقية عن طريق الرحلة.

خاتمة

خط العلماء مجموعة من الكتابات في علوم عصرهم، ومن فنون هذه الكتابات ما سمي بـ "**أدب التراجم**" إذ اتجه العديد من العلماء المسلمين على مختلف مذاهبهم إلى تدوين السير الذاتية للعلماء الذين سبقوهم أو عاصروهم، نظرا لأن هذا علم التراجم مثل حقلا معرفيا غنيا من حقول التاريخ الثقافي للمسلمين، وبذلك جمع علماء التراجم في هذه الكتب سجلا ضخما من علماء الأمة مغربا ومشرقا.

لقد تيسر للباحثين من خلال هذا التراث الضخم من كتب التراجم معرفة العديد من الأعلام الذين تركوا بصماتهم، وساهموا بشكل فعال في ترسيخ ثقافتهم بالبلدان التي رحلوا إليها أو استقروا بها لمدة تطول أو تقصر، فكان هناك تبادل للثقافات بين هذه البلدان وبخاصة بين المغرب والمشرق، لذلك تعتبر كتب التراجم جنسا مصدريا هاما غنيا للتعبير عن التاريخ الثقافي، فهي من أبرز مصادر دراسة التراث الثقافي للعلماء والأمم، نظرا لما تقدمه من معطيات وبيانات لهذا العالم أو ذاك، بل لهذه الطبقة، أو تلك، أو لهذا القرن، أو ذاك.

وللرحلة الدور الهام في توطيد هذه العلاقات حيث كان ولا بد للمغاربة التوجه نحو المشرق لاستكمال علمهم ومعرفتهم، وهؤلاء العلماء المغاربة إضافة إلى مجالسة العلماء يستمرون في علاقتهم بالمشارقة عن طريق تبادل المصنفات مما يعزز العلاقات المغربية المشرقية من الناحية الفكرية والعلمية والثقافية، إلى جانب التواصل بين السلاطين المغاربة والعثمانيين عن طريق البعثات والسفارات، وهذا يدل على الارتباط السياسي الذي كان بين الجانبين رغم أن المغرب كان البلد الوحيد المستقل عن الدولة العثمانية، إلا أنه كان ذو ارتباط بالمشرق نسبا، مما أحدث علاقات اجتماعية، إنسانية، روحية.

الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ/1993م، ج12، ص66.

[2] مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط.

[3] محمد البركة، الكتابة التاريخية وكتب التراجم والأعلام دواعي النظر ومبررات الفكر، ضمن كتاب التاريخ وأدب التراجم: مباحث في المفهوم والمنهج والقضايا، طبع وتصميم: مطبعة آنفو-برانت،12 شارع القادسية-الليدو-فاس، ط1، يوليوز 2016، ص 28.

[4] محمد بنحمادة، مقاربة المعنى في الخطاب التاريخي كتب التراجم نموذجا، ضمن كتاب التاريخ وأدب التراجم مباحث في المفهوم والمنهج والقضايا: ص62.

[5] محمد البركة، م.ن، ص23.

[6] م.ن، ص26.

[7] علي القاسمي، التعاون في مرصد عربي للمصطلحات من ركائز السياسة اللغوية الحكيمة، مجلة التخطيط والسياسة اللغوية، الرياض، السنة 1، العدد1، أكتوبر 2015م:10.

[8] علي القاسمي، موسوعة المصطلح في التراث العربي الديني والعلمي والأدبي، مجلة العرب، الرياض، ج3و4 لسنة 2015م ص197.

[9] أبو عبد الله محمد الصغير الإفراني، فتح المغيث بحكم اللحن في الحديث، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1424هـ/2003م)، ص5-7.

[10] الإفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، ص 11.

[11] م.ن ، ص 12.

[12] الإفراني، م.ن، ص17-19.

[13] محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، (1425هـ/2004م)، ص15.

[14] محمد الصغير الإفراني، الإفادات والإنشادات، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ط1، (1433هـ/2012م)، ص8-9.

[15] الإفراني، م.ن، ص17-19.

[16] م.ن، ص20-21.

[17] م.ن.

[18] أبو الحسن أحمد بن فارس زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام ومحمد هارون، دار الفكر، سوريا، ط2، (1397هـ/1979م)، ص497.

[19] عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، (1414هـ/ 1993م)، ص476 .

[20] م.ن، ص105.

[21] م.ن، ص68-69.

[22] م.ن، ص96.

[23] ابن خلدون، م.ن، ص805.

[24] الإفراني، الصفوة، ص127.

[25] الإفراني، م.ن، ص170.

[26] حسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، مطبعة عكاظ، الرباط، ج1، ص49.

[27] الإفراني ،م.ن، ص325-368.

[28] الإفراني،م.ن، ص189.

[29] م.ن، ص96.

[30] ابن خلدون، م.ن، ص775.

[31] الإفراني، م.ن، ص325.

[32] الإفراني، م.ن، ص146.

[33] محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، مطبعة تطوان، المخزن، طبعة 1953، ص25.

[34] الإفراني، نزهة الحادي، ص136.

[35] الإفراني، م.ن، ص130. صفوة من انتشر، ص235.

[36] الإفراني، نزهة الحادي، ص5-6.

[37] الإفراني، روضة التعريف، ص62.

[38] الإفراني، م.ن، ص69.

[39] الإفراني، الصفوة، ص197.

[40] الإفراني، روضة التعريف، ص 62.